على اللجان الوطنية في المدن المولجة بتنظيم المقاومة وبرسم السياسة، فأدّى غيابهم، حكماً، الى ضعضعة الموقف. والثاني، حقيقة الفوضى التي سادت في الجانب العربي الذي كانت ردات فعله «مرتبكة وغير منسّقة، ممّا عكس الارتباك وفقدان التعاون فيما بين الدول العربية، وفيما بين الدول والهيئة العربية العليا، وفيما بين الدول والهيئة العربية العليا واللجان الوطنية، والهيئة العربية العليا ووحدات المتطوعين العرب، وفيما بين اللجان الوطنية والقادة المحليين وجماعات الغوار والمليشيا في كل جهة، خلال الشهور الاولى للحرب» (ص ٥٧).

استعرض الفصل الثالث احداث موجة النزوح الرئيسة الثانية، التي وقعت بين نيسان (ابريل) وحزيران (يونيو) ١٩٤٨ وشهدت هجرة ٢٠٠ الى ٣٠٠ ألف فلسطيني. وجدير بالتذكّر ان هذه المرحلة الهامة شهدت، أيضاً، تفريغ حيفا ويافا ومحاصرة القدس، الى جانب حملات عسكرية صهيونية وفلسطينية كادت ان تحمل الولايات المتحدة الى التراجع عن تأييد فكرة التقسيم واقامة اسرائيل. وممّا لا بد من تسجيله، مجدداً، وبموجب دراسة موريس التفصيلية، هو ان حركة الطرد والنزوح الرئيسة للفلسطينيين حصلت قبل اشتراك الدول العربية وجيوشها النظامية في القتال، على عكس الدعاية الصهيونية التي تبرّر المأساة الفلسطينية بوقوع الحرب الشاملة. وأضاف المؤلف الى ذلك، ان مختلف القيادات العربية قد عارض النزوح، وأصدر الاوامر لمنعه، باستثناء اجلاء المسنّين والاطفال من بيسان، في أيار (مايو)، من قبل الجيش الاردني.

لقد انطلقت القوات الصهيونية، خلال هذه المرحلة، الى تنفيذ الخطة «د» التي أوصت بـ «تطهير» المناطق اليهودية (حسب قرار التقسيم) من القوى «المعادية»، ممّا انعكس في طرد السكان الفلسطينيين وتدمير قراهم. وابتدأت الحملة بمجازر عدة، أبرزها مذبحة دير ياسين تحت اشراف مناحيم بيغن، وقتل ٧٠ أسيراً فلسطينياً في قرية عين الزيتون بأوامر قائد كتيبة تابعة للهاغاناه. وقد أسهمت تلك الافعال بخلق اجواء الذعر في القرى والمدن المجاورة، تمهيداً لاقتحامها من قبل الصهيونيين. هكذا سقطت طبريا، ثم حيفا. وقدم موريس التفاصيل الوافية عن ظروف سقوط حيفا. فبعد ضعضعة موقفها الداخلي، بسبب هجرة قادة عديدين وتنافس بعض الآخرين، تعرّضت المدينة لحملة عسكرية وارهابية محكمة. وقد أُصدرت الاوامر الى الكتيبة ٢٢ من لواء كرمئيلي الصهيوني لـ «قتل كل رجل بالغ عربي يتمّ العثور عليه» (ص ٧٦)؛ وتمّ قصف الجموع العربية ورشقها بالرشاشات في الشوارع، في ٢٢ أيار (مايو). واثر احتشاد المدنيين على الميناء، فتحت القوات الصهيونية النار عليهم مجدداً؛ ثم اتبعت ذلك بحملة نهب وضرب، اشتركت فيها جماعة الهاغاناه اضافة الى الارغون.

تثير احداث هذه المرحلة مجموعة ملاحظات جوهرية حول موقف الاطراف المختلفة. اولاً، لقد نفذّت القوات الصهيونية الخطة «د» في ظل وجود القوات البريطانية الانتدابية، مما قيّد وضع الثوار الفلسطينيين ومنع الجيوش العربية من التدخل. ثانياً، ساد وضع الدفاع الفلسطيني وازداد تعقيداً، بسبب الخلافات العربية الداخلية؛ مثلاً حين أمر الممثل الاردني وحدة المتطوعين الاردنيين باخلاء صفد، من اجل تفويت الفرصة على مفتي فلسطين الذي اراد مهاجمة الحي اليهودي، فسقطت البلدة كلها. ثالثاً، سجّل المؤلف حالات عدة قامت فيها القوات الصهيونية باحتجاز سكان القرى كرهائن، من اجل ارغامهم على تسليم الاسلحة والمقاومين، وهو اسلوب لا تزال اسرائيل تلجأ اليه. اخيراً، أكد موريس، بناء على دراسته التفصيلية، ان السكان الفلسطينيين لم يخلوا أية قرية، أو مدينة، الاّ بعد تعرضها للهجوم الصهيوني المباشر، أو تعرض القرى المجاورة الى السقوط والترحيل.

مهما كانت أهمية الحالة المأساوية التي عاشها الفلسطينيون، عبر المجازر والترحيل، والتي وصفها المؤلف في فصول عدة من كتابه، فربما كان الفصل الرابع هو الأهم والاكثر اشارة الى الألم والقلق، بتناوله السياسة الصهيونية ـ الاسرائيلية التي قررت منع عودة اللاجئين. ولا ينبع القلق من أعمال القتل التي نفّذتها القوات الصهيونية، بل من ارساء معالم المشروع الصهيوني بوضوح على أسس الطرد الجماعي ونفي العلاقة الفلسطينية بالارض، والتي ما زالت تشكّل قوة الدفع الجوهرية في الذهنية الاسرائيلية، ممّا يحمل دلالات خطيرة على المستقبل العربي.